من الدراسات النفسية في القرآن الكريم

أثر انحراف العقيدة على الأمن النفسي والسلوك الاجتماعي

(الحلقة ١ من ٢)

د. مرهف عبد الجبار سقا
دكتوراه بالتفسير وعلوم القرآن

مدخل:

لقد اتسمت دراسة علماء النفس للشخصية بالنقص وعدم وجود نظرة كلية لتركيبته الإنسانية الفطرية؛ لأنهم اقتصروا في تحليلهم ودراستهم للشخصية على جوانبها البيئية والوراثية والثقافية والاجتماعية والفردية، وأهملوا الجانب الروحي والعقدي في تكوين الشخصية وأثره في سويتها في تحقيق التوازن والأمن النفسي في تلك الشخصية، حيث نظروا إلى الشخصية باعتبارها الأبنية والعمليات النفسية الثابتة التي تنظم خبرات الفرد، وتشكل أفعاله واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها؛ والتي تميزه عن غيره من الناس، ويقسمون الشخصية على ذلك إلى: شخصية سوية وشخصية غير سوية، منكرين الأثر العقدي في بناء النفس الإنسانية وتكوين الشخصية السليمة، فكانت نتائج أبحاثهم عن الإنسان مبتسرة ومتناقضة وتفتقد التكامل العلمي.

لكننا نجد القرآن الكريم يهتم ببيان مكونات الشخصية وسويتها وأمنها من جميع الجوانب ويركز بالأخص على الدور العقدي في بلورة الشخصية وأمنها وسلوكها، وسنجد مثالاً لذلك من خلال تناول هذه الآيات من سورة النحل، وهي قوله تعالى:

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ(٥٦)وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ(٥٧)وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٩).

نحن أمام آيات تصف حقيقة تاريخية، ونمطاً سلوكياً ذا مرجعية عقدية، تصور لنا الحالات النفسية التي يعيشها هؤلاء المنكرون المستكبرون الجاحدون؛ ليكونوا أنموذجاً حياً لتوصيف الحالة النفسية لكل مخالف للفطرة من حيث اتصافها أنها غير صحيحة نفسياً، وغير سليمة عقلياً، وبالتالي حصل من صاحبها هذا السلوك المتعجرف المتناقض.

فأول سلوك عجيب متناقض سلكه أولئك القوم: ذكره تعالى في قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ(، إذ جعلوا في أموالهم حقاً للأصنام التي لم ترزقهم شيئاً، ولا تضرهم ولا تنفعهم، كما قال تعالى: (وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا ..(الأنعام:١٣٦).

عن قتادة قال: (وهم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيباً مما رزقناهم، وجزءاً من أموالهم يجعلونه لأوثانهم)[١] ، والتناقض في سلوكهم هذا من جهتين:

إحداهما: أنهم يجعلون نصيباً من الحرث والأموال لجماد لا حول له ولا قوة؛ خوفاً من ضره وتقرباً من نفعه.

والثاني: أنهم يعطونهم هذا النصيب من رزق الله تعالى المنعم عليهم كل نعمة ظاهرة وباطنة، فبدل أن يشكروه؛ أشركوا به وشكروا من لا يضر ولا ينفع.

والسلوك الثاني الذي سلكوه هو التبرير لما يفعلونه من خلال اختلاق الحجج والمسوغات لإشراكهم بالله، المشار إليه في قوله تعالى:)تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ(، فالقسم بالتاء "يختص بما يكون المقسم عليه أمراً عجيباً ومستغرباً، .. فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يُسألون

١- أخرجه ابن جرير ٢٢٦/١٧ ، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر الدر المنثور ١٣٥/٤.

سؤالاً عجيباً بمقدار غرابة الجرم المسؤل عنه[٢]"، وهو أنكم (تَفْتَرُونَ) أي تختلقون الحجج والتبريرات لما تفعلون وتقولون بأن هذه الجمادات آلهة، وأنكم ما تعبدونها إلا لتقربكم من الله زلفاً، "والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدّلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجدداً ومستمراً منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عمّا تفترون، وعمّا افتريتم"[٣].

والتبرير سلوك يتبعه ضعيف الشخصية، ضعيف الحجة، مضطرب التفكير، غير متصف بالصحة النفسية.

السلوك الثالث: يتمثل في اعتقادهم، - وتناقض ذلك مع رغباتهم - وذلك في قوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وفي هذه الآية بيان لثلاثة أمور أساسية:

إحداها: اعتقادهم بأن الملائكة بنات، إذ الجعل هنا أعم من كونه بالقول[٤]، فهو اعتقاد وقول، قال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا (الزخرف:١٩).

والثاني: باعتقادهم نسبتها لله تعالى؛ حيث أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله من سروات الجن[٥]، كما دل عليه قوله تعالى)وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا(الصافات:١٥٨ ، وكان هذا اعتقادَ كنانة وخزاعة من العرب[٦].

الثالث: رغبتهم في ذريتهم أن تكون ذكوراً فقط؛ لأن ذلك محل شرف ورفعة وقوة لهم، مع اعتقادهم نسبة البنات لله تعالى.

و تناقض تفكيرهم مع سلوكهم واعتقادهم، دليل واضح على قصورهم العقلي واضطرابهم الفكري.

فنزه الله تعالى ذاته العظيمة بقوله:)سبحانه(عما ينسبه المشركون من جعلهم لله تعالى البنوة أساساً[٧].

ثم ذكر الله تعالى أن الواحد منهم لا يرضى لنفسه بالبنت، فكيف يرضهن لله تعالى، فقال عز وجل فاضحاً لهم:)وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(، عن ابن عباس قال: (يجعلون لَهُ البنات، يرضونهن لَهُ ولا يرضونهن لأنفسهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذَا ولد للرجل منهم جارية أمسكها عَلَى هون، أو دسها في التراب وهي حية[٨]) .

فالآية تخبر أن هؤلاء الذين نسبوا البنت لله سبحانه على سبيل البنوة، وهم يعتقدون بوجوده رباً، ترى أحدهم إذا أعلم بولادة الأنثى له؛ صار وجهه كل يومه كئيباً قد غمَّ، وحاله: أنه يخفي الغيظ الذي ملأ كيانه وقلبه، وانتشر في أعضائه؛ يؤثر الانكفاء عن الناس والابتعاد عنهم لاعتقاده بسوء العار الذي لبسه، ولذلك فهو يحتار فيما يفعل، ويضطرب في حكمه، وتراه حائراً ثائراً يضرب الكف على الكف ويترنح متردداً في شأنه، ويحدث نفسه يقول: أأُبقي هذه البنت حية حبيسة عندي، وأقيم على الذل والهوان الذي أصابني وتتحدث عني العرب؛ أم أدفنها في التراب، لأخفي هذا العار، وبذلك يبقى رأسي مرفوعاً عزيزاً.

(ألا ساء ما يحكمون(وما ذلك إلا لأنهم بلغوا من كراهة البنت أعظم الغايات؛ هم أنفسهم يجعلون ما هذا شأنه من الهون والحقارة لله سبحانه وتعالى وهو المتعالي عن الصاحبة والولد)أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(الصافات: ١٥١ -) ١٥٤.

هذه الآيات توجب على المختصين في علم النفس أن يجعلوا الجانب العقدي في صميم دراسة الشخصية الإنسانية والصحة النفسية، وأن يركزوا على أثر الاعتقادات الفاسدة في سلوك صاحبها وصحته النفسية والعقلية.

فالناظر في الأنماط السلوكية التي ذكرها القرآن لمختلف فئات الناس؛ يجد أن القرآن يركز على الدور العقدي لدوافع السلوك، وبلورة هذه العقيدة لأعراف الناس وتقويمهم، وتقرير الأسلوب الأمثل لحياتهم، كما ويصور القرآن الحالة النفسية الداخلية لمكونات الشخصية بناء على اعتقاد صاحب هذه الشخصية.

٢- التحرير والتنوير ١٨١/١٤.

٣- التحرير والتنوير ١٨٢/١٤ .

٤- انظر: أبو السعود ١٢١/٥، وفسر الجعل في التحرير والتنوير ١٨٢/١٤ بالقول.

٥- أي أن الملائكة أتت من ظهور الجن، والسروات الظهر انظر القاموس المحيط مادة سرو.

٦- انظر: البغوي ٢٤/٥، القرطبي ٧٧/١٠، الرازي ٤٤/٢٠، زاد المسير ٣٣٤/٤.

٧- انظر الرازي ٤٤/٢٠، أبو السعود ١٢١/٥ .

٨- أخرجه ابن جرير ٢٢٨/١٧ ط الرسالة، وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٣٣٩٧)، وابن مردويه، انظر: الدر المنثور ١٣٥/٤. كما ورد أن قيس بن عاصم وارى ثمان بنات في الجاهلية وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتق عن كل بنت منهن نسمة أخرجه البزار والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٢٣٨/٧، والإصابة لابن حجر ٣٥٣/٣ ط دار صادر

فالآيات هنا تذكر نمطاً سلوكياً واجتماعياً كان موجوداً في عادات بعض العرب في الجاهلية، وبقي إلى أول زمن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فتُصوِّر الانفعالات النفسية لهم، وأثرها على سويتهم الشخصية والسلوكية، في سياق عقدي وقالب بياني ذي دلائل نفسية، وهو ما يتعارف عليه في علم النفس بالموقف النفسي[٩] .

"فالانحراف في العقيدة – كما تبينه الآيات – لا تقف آثاره عند حدود العقيدة، بل يسري في أوضاع الحياة الاجتماعيةوالاقتصادية، ويدخل ضمن تقاليدها، لأن العقيدة هي المحرك الأول للحياة، سواء ظهرت أو كمنت...ومن هنا فإن انحراف الجاهليين عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة" [١٠].

وهكذا فاسوداد الوجه، وحالة الكظم: انفعالات محرقة ودوافع قوية لطبع عدواني، والتواري عن الناس وحديث النفس فيما يقوم به من سلوك، ما هو إلا ترجمة لاضطراب في الشخصية والبنية النفسية، وفقدان السيطرة على هذه الانفعالات وعدم تحكيمها للفطرة الربانية ينشأ عنها الفعل الإجرامي: الوأد، أو جريمة اجتماعية: إهانة البنت وإذلالها، وينعدم بذلك الأمن النفسي، والأمن الاجتماعي والبيئي.

علماً أن هذه الدوافع والانفعالات والسلوكيات الفاسدة والمنحرفة والمتطرفة؛ ليست قاصرة على مشركي العرب وأبناء جاهليتهم، بل هي مثال لكل من يخالف الفطرة الربانية، ويعتقد عقائد فاسدة، حيث إن أثر اعتقاده الفاسد لا محالة سيظهر في سلوكه على نمط إجرامي في حق نفسه أو في حق الآخرين، وواقعنا الذي نعيشه أكبر برهان على ذلك كله، فنسب انتشار الجريمة في أرقى بلاد العالم مدنية ورفاهية لا تليق بالحالة الاجتماعية والبيئية والرفاهية التي يتلقاها مواطنو تلك البلاد، وما كانت هذه الجرائم لتزداد لولا الأثر العقدي الفاسد على سوء حال المجرمين إلى الشذوذ والانحراف.

ولو ألقينا نظرة إلى نسب الانتحار ـ مثلاً ـ في الدول التي انحرفت عن الفطرة لتجلت لنا حقيقة المواقف النفسية لهؤلاء المخالفين للفطرة الربانية الطاهرة.

وهذه الآيات أيضاً تبين للمختصين في الإرشاد النفسي – في السجون أو المدارس – الطريق القويم لتعديل سلوك التائهين والمنحرفين، بأن يعتنوا بالجانب العقدي الذي يؤسس مبادئ الصحة النفسية وتوازن الشخصية الإنسانية لهؤلاء.

كما تبين هذه الآيات أن الحل الأنسب لرفع الظلم عن المرأة في هو تصحيح العقيدة والتزام الشريعة، لأن أبرز جوانب العقيدة الإسلامية يتجلى بتصحيح تصور الإنسان لنفسه، واستشعاره أنه مخلوق مملوك لله تعالى لا يحق له أن يتصرف في نفسه أو في غيره كما يريد، وأن الناس في الخلق سواء وفي حق الحياة سواء والله أعلم.

٩ـ والموقف في الحياة النفسية هو مجموعة من العوامل الإنفعالية التي تجعل صاحبها يقوم بنوع مركزي من السلوك تدور حوله تلك الانفعالات بجوانبها الإيجابية والسلبية، فالموقف في الدراسات النفسية يتضمن ثلاثة عوامل متفاعلة:
أ ـ النمط السلوكي وما خلفه من دوافع خاصة تؤثر في نوعية السلوك ودرجته.
ب ـ الإنسان نفسه في مجموعه ككل في أبعاده التكوينية.
ج ـ المحيط البيئي بكل مقوماته المتعددة ولا سيما المجال النفسي الاجتماعي الذي يعيشه ذلك الإنسان.
انظر: لمحات نفسية في القرآن الكريم د عبد الحميد محمد الهاشمي صـ١٢٨،ط رابطة العالم الإسلامي من سلسة دعوة الحق العدد ١١ السنة ١٤٠٢ هـ .
١٠ـ ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٧.

قراءة في مفهوم الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم

الحلقة (٢)

د. مرهف عبد الجبار سقا
(دكتوراه بالتفسير وعلوم القرآن)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

يعد الأمن الاقتصادي من المصطلحات الحديثة التي اهتم بها العالم لكونه من القضايا الأساسية في نمو الاقتصاد وتطوره، وقد شغلت أبحاث الأمن الاقتصادي حيزاً كبيراً في الدراسات الاقتصادية الحديثة، لما له من ارتباط بجملة من أنواع الأمن المتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية لأي دولة، كالأمن القومي والغذائي والبيئي والفكري...الخ.

إلا أنك لا تلحظ تعريفا محددا وواضحا لمعنى هذا المصطلح المركب في الدراسات الاقتصادية العصرية، اللهم إلا ما نقله بعض الباحثين عن الأمم المتحدة في تفسيرها للأمن الاقتصادي: (هو أن يملك المرء الوسائل المادية التي تمكنه من أن يحيا حياة مستقرة ومشبعة، وبالنسبة لكثيرين يتمثل الأمن الاقتصادي في امتلاك ما يكفي من النقود لإشباع حاجاتهم النفسية وهي الغذاء والمأوى اللائق والرعاية الصحية الأساسية والتعليم [١]).

إلا أننا نجد هذا التفسير الذي يحاول توضيح المراد من الأمن الاقتصادي يقتصر على أمن الفرد من حيث توفير احتياجاته واستقراره، بينما يبحث الأمن الاقتصادي كمفهوم عام يراد منه استقرار المجتمع عموما كأحد ركائز الاستقرار العام للدولة.

وبالانتقال إلى دراسات علمية أخرى للأمن الاقتصادي في القرآن الكريم فإننا نجد أبحاثا علمية شرعية خاضت غمار هذا المجال في بيانه من القرآن الكريم، تبين أهمية هذا الأمن كنوع من أنواع الأمن العام الذي بينه القرآن الكريم، ومن أهم المؤلفات في هذا الموضوع: كتاب الدكتور معن خالد القضاة (منهج القرآن الكريم في تحقيق الأمن الاقتصادي) الذي هو في الأصل رسالة ماجستير، ومن أهم الأبحاث:

١. (الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم)، للدكتور محي الدين يعقوب أبو الهول.
٢. وبحث الدكتور زياد الدغامين (الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم دراسة موضوعية).

إن مفهوم الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم يؤخذ استنتاجا من مجمل الآيات التي دلت عليه، فنجد القرآن يغاير بين الأمن وبين احتياجات الإنسان الضرورية الداعية لاستقراره كالأكل والشرب، على اعتبار أن هذه الحاجيات لا تتأتى إلا بحصول الأمن لضمان استمرار وصولها وضمان استمرار الاستقرار، قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)) البقرة: ١٢٦، كما أن الآية فرقت بين التمتع العابر بالملذات والأمان والاستقرار، إذ أن التمتع لا يعني الأمن.

وقال تعالى: ((الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف))، فقد امتن الله على قريش بنعمة الأمن من سلب تجاراتهم في رحلة الشتاء والصيف، بأن أمن لهم طرق التجارة، والأمن من نفاد الضروريات الغذائية التي تمنع الاستقرار.

كما أن القرآن الكريم بين أن نعمة الاستقرار والطمأنينة تأتي من توفر الموارد التي تحفظ النفس وتلبي الضروريات والحاجيات كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى طه﴾: ١١٨/ ١٢٠ ،فإنه لما نفى عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له، كما أن نفي الظمأ يستلزم حصول الريّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة التعرض للشمس، وهو ما يسعى له الإنسان في الدنيا ليستقر ويطمئن.

ومن الأحاديث التي تؤكد ما تقدم قوله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) أخرجه الترمذي وحسنه، وقد ورد في"سربه" ثلاثة معانٍ: بكسر السين على الأشهر أي في نفسه، وبفتحها، أي: في مسلكه أي طريقه، وقيل: بفتحتين، أي :في بيته. وفي المعاني الثلاثة فرق الحديث بين أمن النفس والطريق والبيت وبين الغذاء، لأن الثاني لا يكمل إلا بالأول، كما أن في الحديث بيان لأنواع الأمن النفسي والصحي والغذائي.

ومما تقدم نعلم بأن مفهوم الأمن الاقتصادي عموما: هو تأمين الموارد والاحتياجات والمستلزمات التي تعطي الأمن والاستقرار وتحفظ النفس، وتأمين وسائلها وطرق وصولها،وهو جزء من المفهوم العام للأمن في القرآن الكريم الذي يحقق أمن الضروريات الخمس (حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال).

إن منطلق الأمن العام هو الأمن النفسي المرتبط بالإيمان، ففي المقال السابق تكلمت فيه عن البيان القرآني لارتباط الكفر والإيمان بالأمن النفسي وأثره على سلوك الفرد من خلال آيتين من سورة النحل، وظهر لنا أثر الكفر على سلوك الفرد وفساد المجتمع، ذلك لأن الإيمان منطلق سلوك الإنسان العقلي والعملي، مما يؤدي لفساد المجتمع واضطرابه، وعدم أمن علاقات الأفراد ببعضهم في المجتمع الواحد، ولذلك نجد الأحكام التكليفية في القرآن يتقدمها النداء بوصف المؤمنين ((يا أيها الذين آمنوا))، مما يحقق الأمن النفسي الذي هو أساس الأمن العام وما يتفرع عنه، فكان ما تقدم في المقال السابق توطئة وتقديما بين يدي هذا المقال.

فقد شرط الله تعالى تحقق الأمن العام بتحقيق الإيمان، وتنفيذ شرع الله تعالى في المجتمع وشكره سبحانه على ما أنعم، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) الأعراف: ٩٦، وقال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم: ٧.

ولكن قضية الأمن الاقتصادي ليست قضية أكل وشرب وتملك فقط، بل هي قضية استقرار وطمأنينة وسكون الناس لبعضها، وسلامة العلاقات فيما بينهم، وتأمين احتياجاتهم بسلاسة ويسر، وهذا لن يحصل والنفس متشربة بالكفر المنتج لحب الدنيا وسيطرة الأثرة الخاصة، وقد أبان القرآن هذا المعنى من خلال ضرب المثل فقال تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) سورة النحل:١١٢.

فقد جاءت هذه الآية معطوفة على مثل ضربه الله تعالى للذي كفر بعد إيمانه، بالتي نفضت غزلها بعد قوة أنكاثاً؛ ليبين أن العذاب الأليم والغضب العظيم في الدنيا ليس أثره في الدنيا فقط على من كفر أو أشرك بعد إيمانه، وإنما أثره على المجتمع كله، كما قال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) الكهف: ٥٩ والكفر ظلم.

ثم أكد القرآن هذا المعنى بأن ذكر بعد هذه الآية النحل:١١٢ المحرمات من المطعومات ليدل ذلك على مدى ارتباط الإيمان بالأمن الاجتماعي والغذائي، وهما من مكملات الأمن الاقتصادي، وينبههم إلى المنظومة الأساسية للعيش الرغيد والسعادة الحقيقية للمجتمع المطمئن المستقر، والله أعلم.

وهذا المثل قائم لكل ذي عقل إلى يوم القيامة فقال تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً)، والمثل قد يضرب بشيء موجود معين، أو لا يكون موجوداً، فمن ذهب إلى تعيين القرية بأنها مكة [٢] فعلى اعتبار تعيينها، وقد يساعدهم في ذلك الجو الذي نزلت فيه الآية في مكة والسياق الذي جاءت به، ولكن الباحث يرى أن هذه القرية غير معينة وإنما مثل الله تعالى بها تنبيهاً لكل من يكفر بعد الإيمان بسوء العاقبة على سبيل بيان سنته تعالى فيمن كانت حالته كذلك [٣]، يقول الرازي: (والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة) [٤].

وجعل القرآن مثل القرية موصوفة بصفات تبين حالها المقصود من التمثيل، وليكون ذلك تنبيها لمن ابتعد عن الله ولكل غافل فيه هذه الصفات، وتنبيها للمؤمنين إلى المنظومة الأساسية للعيش الرغيد والسعادة الحقيقية للمجتمع المطمئن المستقر، وهذا المثل قائم لكل ذي عقل إلى يوم القيامة فقال تعالى: (كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ) ثلاث صفات كل واحدة منها ركن ركين لابد منه في كل مجتمع: الأمن من الخوف، والاستقرار في الأرض وراحة البال، ووفرة العيش وتيسره، "وقدم الأمن على الطمأنينة لأنها لا تحصل بدونه، كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق" [٥].

فقوله تعالى: (آمنة)إشارة إلى الأمن الاجتماعي والسياسي المتعلق بقيام كيانها.

وقوله تعالى: (مطمئنة) إشارة إلى الأمن النفسي والصحي.

وقوله تعالى: (يأتيها رزقها رغداً من كل مكان) إشارة إلى الأمن الاقتصادي والتجاري وما يتعلق بهما من أمن سبله ووسائله وأدواته.

وقوله (من كل مكان) ليدخل كل سبيل يمكن دخول الرزق منه سواء البر أو البحر أو الجو، فكان هذا الترتيب بيان لأولوية كل أمن على أمن.

والآية كما هو معلوم مكية، والبيئة التي يعيشها المسلمون ينعدم فيها الأمن بسبب أذى المشركين، فكان فيها تحذير للمشركين؛ وتنبيه وتعليم للمسلمين لتهيئتهم لمرحلة مقبلة آتية. وقد استفاد المسلمون منها لذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما هاجر آخى بين الأنصار والمهاجرين لتحقيق الأمن الاجتماعي والسياسي الداخلي من خلال تحقيق التآلف بين الأفراد وتقوية قبضة المسلمين، ووطد الصلة مع جيرانه من القبائل لتحقيق الأمن السياسي الخارجي ووسائل التجارة وسبلها، وكان صلى الله عليه وسلم يحثهم على التجارة والزراعة والعمل من أجل الأمن الاقتصادي، والاكتفاء المعيشي كما هو معلوم في السنة المطهرة والسيرة الشريفة والله أعلم.

ولما كان هذا الأمن من آثارالإيمان بالله ورسوله، بين الله تعالى أن زوال هذه النعمة يكون بزوال سببها فقال تعالى: (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ)، أي "حصل الكفر عقب النعم التي كانوا فيها إذ بطروا، فأشركوا بالله وعبدوا غيره" [6] (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)، والتعقيب هنا عرفي في مثل ذلك المعقَّب، لأنه حصل بعد مضي زمن عليهم، وإمهالهم بعد الإنذار على كفرهم بالله ورسوله [7]، "وفي الكلام استعارة تبعية مصرحة لبيان أن الخوف والجوع لبسهم، وأسبغهم، وتمكن منهم في داخلهم وخارجهم وكل جوارحهم، فالخوف يغشى الجسم بالاضطراب والهلع والجزع، والجوع يغشاه بالضعف والحاجة.

والاستعارة الثانية: أصلية مصرحة، وهي تشبيه الجوع والخوف بالشيء الذي يذاق [8]" ، قال الزمخشري: (أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع [9]) ، ويقول ابن عاشور: (ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرّعة على الأولى ومركّبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأولى، وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً [10]) ، ثم بين أن هذا الجزاء بسبب صنعهم، وهو الكفر بالله ورسوله، وهذه هي سنة الله في الأمم الخالية كما في قصة ثمود إذ قال لهم أخوهم صالح: ((أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ( ) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ( ) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ( ) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ( ) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ( ) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ( ) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)) الشعراء: ١٤٦ – ١٥٢، فالآيات ذكرت الأمن والرزق كمتلازمين لا ينفكان عن بعضهما ونجد دائما الأمن يتقدم الرزق لكونه الوسيلة لحصوله ودوامه، كما تبين الآيات بجلاء أن الكفر ومخالفة شرع الله من أهم ذهاب أمنها وهلاك رزقها، فالفساد في الأرض أثر من آثار ضياع الأمن والاستقرار.

الخلاصة:

١. الإيمان هو ركن الأمن النفسي، والأمن النفسي هو قلب الأمن العام.
٢. الأمن الاقتصادي نوع من أنواع الأمن العام الذي يحفظ للدولة كيانها واستقرارها.
٣. مفهوم الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم هو بتلبية ضروريات وحاجيات المجتمع وتأمين سبلها ووسائلها، مما يحقق له العيش الرغيد والاستقرار في الأرض.
٤. كما أن الإيمان مرتكز الأمن الاقتصادي، فإن الكفر ومخالفة شرع الله مرتكز هلاك الأمة عموما ومن الناحية الاقتصادية خصوصا.
٥. ينبغي على المعاهد والكليات الاقتصادية التركيز على سلامة الإيمان، والأمن النفسي كأحد مرتكزات تحقيق الأمن الاقتصادي، مما يتطلب تدريس العقيدة مربوطة بأدوات الاقتصاد ومعاملاته.

المراجع والمصادر:

1. التخطيط الاستراتيجي لتحقيق الأمن الاقتصادى والنهضة المعلوماتية، بالمملكة العربية السعودية، د. سعيد على حسن القليطى الأستاذ بقسم الهندسة الصناعية بجامعة الملك عبد العزيز، بحث مقدم لمؤتمر تقنية المعلومات والأمن الوطني بالرياض 2007، صـ 4.
2. كما ذهب إلى ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وقال ابن الجوزي أنه الصحيح انظر: زاد المسير 4/365، البغوي 3/87، الرازي 20/102، القرطبي 10/127. الأمثال القرآنية لحبنكة صـ69.
3. وإلى ذلك ذهب الحسن إذ قال: (إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون زاد المسير 4/365. وذهب البقاعي إلى أنها قرية من القرى الماضية كقوم هود وصالح و.. كانوا مثل أهل مكة انظر نظم الدرر 11/264
4. الرازي 20/102.
5. انظر: التحرير والتنوير 14/305.
6. انظر: نظم الدرر 11/264، التحرير والتنوير 14/306.
7. انظر التحرير والتنوير 14/306.
8. انظر: الرازي 20/103، الدر المصون 7/295، ابن عادل 2/340، الآلوسي 14/243، التحرير والتنوير 14/307 زهرة التفاسير 8/4285.
9. الكشاف 2/597. وقد أسهب الزمخشري في بيان هذا المثل كثيراً حتى قال ابن المنير في الانتصاف 2/596: (وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر) ا.هـ وقال السمين الحلبي في الدر المصون 7/295: (وهذا نهاية ما يقال في الاستعارة)..
10. التحرير والتنوير 14/307.